

## التعليم الحواريّ أداةً لتطوير المجتمع تجربة جمعية كاريتاس - مصر

صلاح سبيح<sup>٥</sup>

مقدمة

في الحديث عن التّقدّم، لا بدّ من التركيز على كينيّة استخدام التعليم من أجل التطوير وممارسة الحقوق.

والحقّ في التعليم أمرٌ معروف ومعترف به في مصر منذ رفع رابته طه حسين. لكنّ التعليم في الوقت نفسه قد يكون فاقداً محتواه الحقيقيّ ومجرّد شهادة أو ورقة في يد من تعلّموا، إن لم يدفع الإنسان إلى تغيير مجتمعه.

وانطلاقاً من هذا المفهوم، تبنّى كاريتاس جيودها في مجال مكافحة الأميّة من خلال برنامج «تعلّم تتحرّر» الذي يقوم على فكرة التوعية، وهي فكرة تتجاوز مفاهيم التعليم التقليديّ القائم على تلتين كميّة من المعلومات، وتعامل مع الدارس على أنّه إنسان جاهل يحشو رأسه بعلوم قد يحتاج إليها أو لا يحتاج، وتركز على اللحاق بالتعليم النظاميّ من دون النظر في جدوى هذا التعليم في حياة الأميّ نفسه.

(٥) من مؤسسي اللجنة المكويّة لمحو الأميّة في العام ١٩٧٥. مسّؤول عن نطاق محو الأميّة في جمعية كاريتاس - مصر.

وقد ظهر في الستينات من هذا القرن مُرَبِّ برازيلي شهير هو «پاولو فريري» الذي استناع، عبر احتكاكه بالبشر في أوساط شديدة الفقر، اكتشاف تعارض حاجات الدارسين الملحة ما يتعلمونه في كثير من الأحيان. لهذا انطلق، في نظريته إلى تعليم الأتيين، من درس حاجتهم ورغبتهم في التعلم، وألّف عدّة جمعيات ثقافية تساعد هؤلاء الأتيين على التعلم من خلال التعبير عن مشكلاتهم والتدرب على حلّها. فبدأ تعليم الكبار يتخذ معنىً جديدًا يتجاوز فكرة الحصول على شهادة، ويستهدف تغيير المجتمع وتطويره، ويعتمد على أسلوب الحوار.

وقد تعرّفنا إلى هذا الفكر العام ١٩٧٢ من خلال بعض الأصدقاء في لبنان الذين كانوا قد سبقونا في محاولة تطويع هذا الفكر للواقع العربي واللبناني منذ العام ١٩٦٨.

وبذلك بدأت تجربة اللجنة المسكونية لمكافحة الأمية بصفتها محاولة لتطبيق هذا الفكر في مصر.

وكان أهمّ ما لفت نظرنا آنذاك أنّه أسلوب يجذب الدارسين، وأنّ الحوار ما هو إلّا وسيلة لتنشيط الدرس وإحيائه، وأنّ الطريقة الصوتية هي مجرد أسلوب لتعليم الكلمات بشكل سريع. وسرعان ما اكتشفنا أنّ ما نادى به «پاولو فريري» هو أعمق بكثير من ذلك، وأنّه في الحقيقة يطرح ثورة تربوية أكثر من كونه مجرد أسلوب تعليمي متطور.

فالاستماع إلى الدارسين والتعرّف إلى مشاكلهم والانطلاق منها للدرس أمر غير معهود، كما أنّ الاعتراف الحقيقي بخيرتهم أمر يصعب علينا نحن الذين تعلمنا، ونعتد - لا إراديًا، بل بسبب الأسلوب التربوي الذي نشأنا عليه - أنّنا نعرف كلّ شيء.

وقد تبيّن لنا أيضًا أنّ الدارسين - مهما كانت ظروفهم شاقّة - لديهم قدرات كامنة يجب استمارها، وأنّ هذا الاستمار كفيل بتغيير الكثير من الأوضاع الالية في مجتمعهم، من عادات وتقاليد وعلاقات، ويؤدّي إلى حركة وعي لا يمكن الدارس بعدها أن يظلّ سليبيًا في حياته. إنّ «پاولو

قريبي، بأسلوبه التربوي، يخلق شخصية جديدة فاعلة، لا مجرد دارس  
حصل على شهادة.

ونحن، عندما بدأنا، كنا نتصور أننا بعدد إعداد برامج للزيت  
وغيرها للمدينة وأخرى للمرأة وأخرى للشبية... إلخ، وسرعان ما تبين  
لنا أن هذا يناقض الفكرة الأساسية.

إن عمل برامج منتزعة لكل فئة يعني تلتين المعلم وتوقع الدارس في  
عالمه، بدلاً من توفير الثمرة للمعلم أن يتكرر، وللدارس أن يوسع  
مداركه.

لذا عدنا إلى فكرة تأليف كتاب واحد يستمد عناصره من الحياة  
العامة اليومية، ونترك المساحة الكافية والمرونة للمنتق لأن يكتب هذه  
العناصر تبعاً لخصائص الدارسين الذين يتعامل معهم.

وفي سبيل ذلك، تُت دراسة بالتعاون مع العاملين في مجال التنمية  
ومحو الأمية والعمل الاجتماعي، واستهدفت تحديد حاجات الأمتين على  
أختلاف فئاتهم، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وأبناء مَدُن وأبناء أرياف إلخ.  
فأظهرت تشابه حاجاتهم الجوهرية، نتيجة تشابه ظروفهم الاجتماعية  
والاقتصادية، وهي الحاجات التي بُني عليها برنامج واحد، رغم كل ما  
يعتله ذلك من خطورة في خلق البشر أو في تشكيلهم وفق نمط واحد، أو  
حتى التعامل معهم على هذا الأساس. وهذا ما أمكن تجاوزه عبر المرونة  
التي يتمتع بها فكر دياولو قريبي، وهو يظهر بوضوح في كتابه تعليم  
المثبورين، حيث يرى أن التعليم يجب أن يتمحور على اختبارات  
الدارسين، ومشاكلهم، ليكون أكثر ارتباطاً بواقعهم. وبالتالي يصبح دور  
الكتاب هنا مراجعة بعض الكلمات، فيصبح الارتباط شديداً بين ما يتعلمه  
الدارس، وما يواجهه من مشكلات، وما يطرحه من حلول مبنية على  
خبرته الفعلية لمواجهةها، وهو ما يُنمي عنده الشعور بالذات، والرغبة  
الحقيقية في التغيير، لأن الحلول التي يتوصل إليها لمواجهة مشاكله ليست  
مفروضة عليه.

كانت الدروس الأوائل تدور على مشاكل الناس في علاقاتهم، على الأوضاع الاقتصادية وعلى الفكر والثقافة السائدة. وأخذنا في ذلك بمبدأ التدرج من العام إلى الخاص حتى يستطيع الدارس أن يعبر بسهولة وبالتدرج عن نفسه، فلا يمكن أن نتصور أن الدارس سيحدث عن مشاكله الاقتصادية الخاصة كالأجور، أو علاقة الزوجة بزوجها في الأمور المالية، من أول مرة.

### برنامج «تعلم تتحرر»

وقد أطلقت اللجنة اسم «تعلم تتحرر» على هذا البرنامج، وهو عنوان يعبر بصدق ودقة عن فلسفة «پاولو فريري» التي تنادي بتوعية الإنسان المتحرر من أجل تحرره، وتؤكد أن التعليم من أجل الحرية والتحرر يكون بعودة الإنسانية إلى الإنسان، فيصبح قادراً على الإبداع والبناء والحركة، وعلى أن يكون نشطاً مسؤولاً وفعالاً، وإنساناً تحرر من الخوف الذي يملكه في ممارسة دوره في واقعه اليومي. ذلك الخوف الذي أطلق عليه «پاولو فريري» اسم «ثقافة الصمت» لأنه يعيق مبادرات الإنسان وخطواته ونموه وسعيه إلى مراميه، ويعيق تحرره من التخلف والجنيل والعادات السلبية والتندرات وعالم الغيبات الذي يتحكم في معيره بلا وعي.

فالتعليم هنا هو التعليم الحوارية الذي يعمل على البصيرة وعلى رؤية الواقع بصدق، وبالتالي إمكانية الفعل المؤثر في هذا الواقع والعمل المناسب لتحقيق التغيير والتطوير.

ومن ثم تكون العلاقة الحوارية التي تنشأ بين الدارسين والمنتقنين (المعلمين)، وما بها من تبادل الخبرات والمعلومات حول قضايا الواقع المشترك، هي الفعل الخلاق لفهم الواقع ونقده واختيار المتغيرات أو المواقف أو الحلول المناسبة.

إن وعي الوضعية الإنسانية هو في حقيقته وعي الوجود الإنساني كله. ذلك بأن الإنسان، عند نقده وضعه، يبدأ باكتشاف الآخرين الذين في

مثل وضعه. وهذا التداخل الإيجابي في الواقع المشترك الذي يعيشونه معاً، هو في حقيقته وعي تاريخي يمثل خطوةً إلى التغيير والتحرر المطلوب.

وسوف نلاحظ في هذا الإطار تبادل عملية التعلم بين الدارس والمعلم، بحيث تتغير نظرة المعلم إلى كثير من الأمور نتيجة علاقته بالدارسين، تلك العلاقة التي تتحول من مجرد الشعور بالإشفاق عليهم إلى التضامن معهم، لدعم جهودهم ولتطوير حياتهم بعد التعرف إلى خبراتهم وقدراتهم الحقيقية، لا سيما وأن بعض مشكلاتهم قد تكون هي نفسها مشكلات المعلم التي عليه هو أيضاً مواجهتها. هكذا تصبح عملية التعليم في الحقيقة عملية اكتشاف خبرات الأئمين الكامنة وتناقلهم ورؤيتهم مجتمعيهم، وهم لا يستطيعون التعبير عنها أو إظهارها، وهذا ما يعني، في حالة نجاحنا، قدرتنا على تحويل التعليم من مجرد حق إلى قدرة على ممارسة الحقوق.

### أولاً: التعليم الحواري

ولكي يمكن تحقيق ذلك في برنامج تعليمي لمحو الأمية، لا بد من وجود شئنين: يمثل الحوار الشق الأول، ويتوعدنا إلى ثلاثة أدوار رئيسية هي: التعبير والتحليل والتخطيط، وتم جميعها من خلال منهج متكامل.

١ - أن يمتلك القدرة على التعبير عن مشكلة، حتى لا تظل هذه المشكلات غائبة عن اهتمام المجتمع

لذلك يحتوي كل درس في البرنامج التعليمي على جزء حوارتي يخصص للحديث عن مشاكل الدارسين والتحاور في شأنها، لأنها أفضل الوسائل في التعبير عن أنفسهم ومشاكلهم وتصوراتهم لمواجهتها. وقد يخجل الدارس أو يتعجب من أسلوب الحوار في البداية، لا سيما وأن تربيته تمت على مبادئ التلقين والإنصات، فيفقد القدرة على الحوار والتعبير، وهي القدرة التي يستعيدها من خلال عملية التعلم.

٢ - أن يكتسب الدارس القدرة على التحليل، وهي ليست سهلة. فقد يستطيع الدارس التعبير عن مشكلاته، من دون أن يربط هذا بالتحليل والتدبر سمياً إلى البحث عن الأسباب والجذور التي تعود إليها تلك المشكلات. وسنجد أن اكتساب القدرة على التحليل التصحيح مرهون بمستوى الوعي الذي يكتسبه الدارس.

• ففي حالة الوعي السحري، يُرجع الدارس مشاكله إلى أسباب غيبية، وهو ما يتبعه طرحه حلولاً سحرية لمواجهة هذه المشاكل.

• وفي حالة الوعي الساذج، يربط الدارس المشكلة بآخر سبب استطاع ملاحظته، وليست جميع الأسباب قد تؤدي معاً إلى ظهور المشكلة. لهذا تأتي الحلول التي يطرحها في إطار هذا الوعي وقتية وغير جذرية.

• وفي حالة الوعي التثدي، يتبع الدارس جميع الأسباب المؤدية إلى مشاكله، وبالتالي يمتلك القدرة على وضع حل يأخذ جميع هذه الأسباب بعين الاعتبار، وهو مستوى من الوعي لا يستطيع الدارس أن يصل إليه إلا إذا استلقت القدرة على التحليل التثدي.

• وفي حالة الوعي المتعصب، قد يتعصب الدارس لأحد الأسباب المؤدية إلى مشكلته، وبالتالي يتعصب لأحد الحلول التي قد يراها الأنسب ويفرضها على الآخرين، من دون أخذ رأيهم ومبادرتهم بعين الاعتبار، مما يحبط هذه المبادرات.

٣ - أن يكتسب الدارس القدرة على التخطيط

وذلك ليمارس ما توصل إليه من حلول. إذ إن تحليل أسباب المشاكل يجب أن يرتبط أيضاً بالمشاركة والتخطيط الجماعي في أساليب مراجعتها، وهذا ما يضع في الحبان جميع الأسباب والمعطيات المرتبطة بالمشكلة. إن التخطيط الجماعي لمواجهة هذه المشاكل يمكن ترميحه عبر سلسلة من التدريبات التي تبدأ برصد المشكلات الصغيرة وأسبابها والتعرف إليها، ثم تناول التخطيط الجماعي لحلها، كجزء من

البرنامج التعليمي، علمًا بأن هذه التدريبات تمنح الدارس، في حالة نجاحها، الثقة بنفسه، وهي خيرته لمواجهة المشاكل الكبرى على مستوى المجتمع المحلي، وبالأسلوب التحليلي الذي تدرّب عليه. وهنا يصبح التعليم أداة في ممارسة الحق والدفاع عنه، ورصيدًا تستطيع الشعوب أن تتقدم بفضلها، وهو ليس مجرد شهادة على جدارة أو أرقام تتراجع في الإحصائيات الرسمية.

### ثانيًا: الشقّ التعليمي

أما الشقّ الثاني فهو الشقّ التعليمي، وفيه يتدرّب الدارس أيضًا على تحليل الكلمة موضوع الدرس، وهذا ما دعا إلى استخدام الطريقة الصوتية، بحيث يسهل على الدارس، من خلال مجرد نقطة من نقاط الكلمة، أن يحلّلها إلى أصواتها، وبالتالي يمكن إعادة توظيف تلك الأصوات في تكوين كلمات جديدة، يكشف من خلالها الدارس علاقة الصوت بالشكل الذي يرمز إليه، وهو ما نسميه الحرف.

وقد تبدو تلك الطريقة التي استخدمت في بلدان كثيرة لتعليم اللغة غير مألوفة. إلا أنها فعالة إلى أقصى درجة، لا سيّما وأنّ الحروف التي يتمّ تعلّمها قد رتبت ترتيبًا عمليًا جعل الأكثر استخدامًا يأتي في الدروس الأوائل، والأقلّ استخدامًا يأتي في النهاية.

ومن أجل بلورة الناحية التعليمية، كان الأمر في غاية الصعوبة. فاللغة البرتغالية التي كان «پاولو فريري» يعلّمها هي لغة ذات مقاطع صوتية واضحة بحكم وجود الحروف الساكنة والمتحرّكة، ولكننا في اللغة العربية - كما نعلم - هناك الحروف وهناك الحركات.

وقد ظلّ الحوار يتناطوئًا إلى أن استقرّ بنا الرأي على أنّ الحلّ الأنسب لهذه المشكلة هو أن نبدأ بالحركات الطويلة في بداية البرنامج، المدّ بالألف، والمدّ بالواو، ممّا يجعل ربط الصوت بالشكل واضحًا، وأرجأنا الحركات القصيرة، الفتحة والكسرة والضمة بعض الشيء، إلى

مرحلة متقدمة من البرنامج، واعتمدنا بعد ذلك فكرة تعليم الحرف بصوته  
«ن»، لا باسمه «نون»... إلخ.

ولكن، في كثير من الأحيان، نعاني من قبل الدارسين الذين ذهبوا  
بعض السنوات إلى المدرسة ويصرون على اسم الحرف، رغم أن تعليم  
صوت الحرف يساعد على التعلّم بسرعة.

ولقد تطلّب منا إعداد البرنامج إعادة ترتيب الحروف الأبجدية،  
وهذا ما يساعد على تحقيق الهدف من خلال التراكم المعرفي. فني  
الأبجدية حروف كثيرة تأتي في نهاية القائمة، في حين هي شائعة  
الاستخدام، كما أن هناك حروفًا كثيرة في بداية الأبجدية لا نستخدمها  
كثيرًا، كالثاء، أو الخاء، أو الذال... إلخ.

وقد استوحينا لهذا الترتيب فكرة الآلة الكاتبة التي تمّ ترتيب حروفها  
بحسب كثرة الاستخدام، وتترتب تلك الحروف من الأصابع القوية، ممّا  
يساعد على سرعة الكتابة، وبذلك أصبح الدارس، بعدد قليل من الحروف  
وفق الترتيب الجديد، يستطيع قراءة عدد كبير من الكلمات، وبالتالي  
الجملي.

وقد تنبّينا أيضًا إلى أن هذه الطريقة تساعد الدارس على تحليل  
الكلمة إلى مقاطع وحروف. ثمّ إعادة بناء كلمات جديدة وتركيبها، مثلما  
تعلّم تحليل الراقع ومشكلاته في محاولة تغييره للأفضل. والبرنامج، لأنه  
مرتبط بالحياة، يتمّ مراجعته كلّ عدّة سنوات ليواكب المستجدات، ويلبي  
الحاجات الجديدة التي ظهرت من خلال أداء الدروس. لذلك تمّ تصميم  
دليل الفنتق (المعلّم)، بحيث يمكنه كتابة انطباعاته وانطباعات الدارسين  
وأصدقاء الدروس عليهم، والاستعانة بذلك عند إعادة الأصدقاء.

### دور جمعية كارتاس - مصر في نشر البرنامج

لقد تبنّت جمعية كارتاس - مصر هذا البرنامج، وهي شريك  
مؤسس في اللجنة المسكونية منذ نشأتها في العام ١٩٧٢. وكوّنت  
كارتاس لمحو الأمية قطاعًا خاصًا، ومنذ العام ١٩٨٤، باشرت ما يُسمّى

«المشروع القومي» الذي يهدف إلى فتح باب المشاركة مع الجيات المحلية، من حكومية وأهلية، لدفع العمل في مجال مكافحة الأمية. دعمت، في سبيل ذلك، مكتب الإسكندرية، وأنشأت مكاتب خاصة في بعض المحافظات الأخرى لتنفيذ المشروع. بدأت بالمينا وسوهاج فأسيوط. وأخيراً تم فتح مكتب في مدينة الأقصر لخدمة محافظتي قنا وأسوان.

وتسمى المكاتب إلى افتتاح فصول لمكافحة الأمية بالتعاون مع الجيات المعنية، ومساندة تلك الفصول عن طريق تدريب المنتسبين ومتابعيهم فعلياً، كما تمّ بالتدريج إضافة بعض النشاطات التنموية والتثقيفية الأخرى إلى برنامج مكافحة الأمية، تبعاً لحاجات كل منطقة. وهي بذلك تقوم بتقديم نوع من التنمية المتكاملة، تبعاً لدرجة وعي الناس وقدرتهم على المساهمة الحقيقية في تلك البرامج التي تبلور تبعاً مع الأهالي أنفسهم.

وهكذا أصبحت تقدّم إلى الدارسين خدمات جديدة، كالتوعية الصحية والتدريب المهني، لمن يشاء وفي المجال الذي يحتاج إليه، كما أنها تقدّم بعض التروض لتزويد الدخل عن طريق عمل مشروعات صغيرة. وتسيّم هذه البرامج التي تشمل روحياً جميعاً من فلسفة التعليم الحوارية، في خلق مجموعات صغيرة واعية تسمى لتطوير مجتمعاتها. فالبرامج تزوّلهم لذلك وتحفزهم على أن يبادروا إلى تحقيق التغيير من تلقاء أنفسهم، وبمساندة الجمعيات المحلية الأخرى.

ومع توسيع قاعدة عمل كارتاس في مجال مكافحة الأمية، تبلور دورها خاصة، مع بداية الحملة القومية لمحو الأمية ١٩٩٠-١٩٩٩، في أن تقوم أيضاً كجهة مدربة بتأهيل العاملين في مشروعات مكافحة الأمية في عدّة هيئات كاليونيسف وهيئة كير الدولية والهلل الأحمر... إلخ. وقد بلغت فصول كارتاس في العام ١٩٩٧-١٩٩٨ (٩٥٠ فصلاً) مرزعة على أنحاء الجمهورية المصرية، وتضمّ أكثر من خمسة عشر ألف دارس ودارسة.

يصدر قريباً عن دار المشرق

- السّر المصون في شيعة الفرعون  
بقلم المرحوم الأب لويس شيخو اليسوعي
- الديارات النصرانية في الإسلام  
بقلم المرحوم حبيب الزينات
- تاريخ الفلسفة الإسلامية  
بقلم الدكتور ماجد فخري
- نصوص قرآنية مختارة لها صلة بالكتاب المقدس  
بقلم الأب جاك جوميه - تعريب الأب صبحي حموي اليسوعي
- كتاب المجموع في المحيط بالتكليف  
لقاضي القضاة أبي الحسن عبد الجبار  
تحقيق الأب يان بيترس اليسوعي
- الإيمان الكاثوليكي (وثائق كنسية رسمية)  
إعداد الأب جريج دوماج - تعريب الأب صبحي حموي اليسوعي
- إزائية الأناجيل الأربعة  
إعداد الأب صبحي حموي اليسوعي
- الدين وحقوق الإنسان. رؤية مسيحية  
بقلم الأب وليم سيدهم اليسوعي
- الرياضات الروحية الإغناطية. قراءة لاهوتية روحية معاصرة  
بقلم الأب فاضل سباروس اليسوعي
- دع الله يكمل شخصيتك  
بقلم دان مونتغمري - تعريب الأب صلاح أبو جوده اليسوعي
- Explication de la Sainte Messe  
Par S' Nersès de Lambron - Ed. Isaac Kéchichian, S.J.
- Najrān. Chrétiens d'Arabie avant l'Islam  
par René Tardy, S.J.